نفاضة الجراب

فجائع البائسين

هذه روايةٌ وطنيةٌ اخلاقيةٌ واقعيةٌ تمثل للقاريء ما تئن منه هيئتنا الاجتماعية من البؤس وما يتخلل نظام بيوتنا من الخلل تشبه في بعض مضامينها رواية البؤساء لأستاذ الفصاحة والادب حافظ افندي ابراهيم وان كان بين الروايتين فرق في الاسلوب وكيفية الأداء ولا عجب اذا تم للمتقدم ما لم يتم للمتأخر فان حافظاً هو بلا مراء مالك زمام البيان والتبيان . ولعل المغرمين بالروايات والعالمين بنسج الاقاصيص والحكايات يؤآخذونني على الاقتضاب في الفصول الغرامية فيعدُّونه نقصاً في الاسلوب فأنا أستميحهم عذراً على ذلك اذ قضى عليَّ وضع الرواية وسلسلة حوادثها بأن أقتصر على ما اقتصرت والله المستعان دمشق : شكري العسلي

١

في ليل الاربعاء السابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) هطلت الامطار وهبت العواصف واشتد البرد فاستحال المطر ثلجاً وابيضت الدنيا فصارت كالعهن المنفوش واخذت خديجة تشعر بألم الوضع نحو الساعة الخامسة بعد الغروب فايقظت زوجها احمد وأخبرتهُ بما ألمّ بها من ألم المخاض فهبّ من ساعتهِ ليأتي بالداية وأحب ان يستصحب معهُ مصباحاً يستصبح بهِ في ظلام الليل الدامس ولما كانت داره خالية من كل شيء راح يطلب الى خادم جاره وكان هذا من الاغنياء ان يعيره فانوساً أو مصباحاً فطرق الباب عليهِ وكان الخادم مهتماً باحضار سفرة الحلويات والفاكهة ليتناول

منها ضيوف سيده فخجل احمد وخشي ان يظن القوم انهُ أتى مدفوعاً بما انبعث من رائحة الطعام ولكن صاحب المنزل كان كريم الطبع محباً للضيوف فتبسم له ورحب بهِ واستثقل بعض الحضور مجيئه في تلك الساعة فهمس احمد في أذن صديقهِ الخادم قائلاً له : هل لك ان تعيرني مصباحاً أستنير بهِ في طريقي لاني ذاهب لاحضر الداية لامرأتي فقد أخذها المخاض .فسأل صاحب الدار خادمهُ عن سر مجيء احمد فاجابه الخادم انهُ يريد ان يستعير منا مصباحاً وأعلمه بالسبب فامره مولاه بان يلبي طلبه فاخذ صاحبنا المصباح وذهب مهرولاً الى الداية فلما قرع بابها سألته عن المُقرِب فاجابها بانها امرأته واذ أيقنت انه لا ينالها الا التعب والبرد ونسيت ما ستناله من الاجر والشكر وما يترتب على عملها من خدمة الانسانية لم يسعها الا ان تظهر أسفها واعتذرت بمرض اعتراها منذ أسبوع فدلت على أنها عارية من عواطف الرحمة مجردة عن الانسانية التي كانت توجب عليها ان تسعى الى تخليص تلك البائسة من خطر الموت ومن يدري كم من النساء اللواتي ذهبن لجهلها وعدم اعتنائها بقواعد الصحة . وكم سمعنا ورأينا من النساء اللواتي فارقن الدنيا بسبب الوضع لجهل القابلات وقلة عنايتهن

انفصل صاحبنا عن باب الداية وعينه تقذف قطرات الحنو الزوجي ممزوجاً بحسرة البؤس البادي على صفحات خديه وذهب الى قابلة أخرى فسألته عن الاجرة فاخبرها بما في مكنتهِ ان ينقدها اياه من الدراهم فامتنعت واعتذرت ثم قالت انها لا تخرج من منزلها العامر الا باجرة وافرة فاخذه البكاء وذهب الى عجوزة عرفت بعمل الخير لها خبرة بالتوليد فاستنهض همتها واخبرها بما جرى له مع تينك القابلتين فأسفت لحاله ولعنتها ولعنت الزمان الذي قل عمل الخير فيه وأخذتها الحمية والحماسة الشرقية فذهبت معهُ على الفور وأجلست خديجة على الكرسي وأخذت تعالجها وتحمسها وتقرأ لها ما تيسر من القرآن وتتوسل بالادعية على عادة العجائز التقيات . فلما حانت الساعة السابعة بعد منتصف الليل وضعت خديجة غلاماً سُر به ابواه وسمياه سعيداً تفاؤلاً بان ينالها السعد بهذا وقرأا الفاتحة على هذه النية ومن العادات التي لا خلاص منها اكرام القابلة

بضروب الحلواء والفاكهة ولم يكن عند صاحبنا درهم واحد ليقوم بهذه العادة فرهن قدراً له وأتى ببعض المآكل قدمها للقابلة وانصرفت واعدة اياه بالمجيء كل يوم لتتم احسانها

٢

أخذ سعيد ينمو يوماً فيوماً وغدا سلوى أبويه في بؤسهما ومحط آمالهما وكانت مياومة أبيه لا تقوم بنفقة عياله فحسن لديه أن يُستخدم في كتائب الدرك لينال ثلثمائة قرش مشاهرة فقدم طلبهُ والتمس تعيينه وساعده على ذلك بعض اهل الخير فعين نفراً وظن أن ما تم له من الخير ناله بيمن طالع سعيد ابنه فأمل فيه خيراً وزادت محبتهُ له وكان احمد حسن المنزع مهذب الاخلاق عُرف بالامانة فاتخذه زعيم الدرك علي باشا وكيلاً على منزله وأحله منه محل الثقة وطفق يحسن اليه والى سعيد ابنهِ وكان قد بلغ السادسة من عمره فظهرت عليه أمارات النباهة وحدة الذهن . وكان للقائد المشار اليه ابنة وحيدة اسمها جميلة هي في السادسة من عمرها كسعيد وقد كان أجتماع سعيد بها في منزل واحد واشتراكهما في العمر سبباً في ارتباطهما برابطة الاخاء المتينة وألف كل منهما أخاه حتى صارا كأخ وأختهِ لا يطيقان افتراقاً

وفي غضون ذلك أدخل الباشا سعيداً الى المكتب الابتدائي فلما بلغ الثانية عشرة من عمره أتم الدراسة الابتدائية وثبتت لدى الباشا كفاءتهُ فأدخله المكتب الاعدادي الملكي بدمشق داخلياً بلا أجرة فجدّ في دروسه حتى تقدم في صفه واصبح الاول فيه وهو يختلف الى منزل الباشا في اغلب الاحيان وكلما دخل المنزل يشعر بميل لرؤية جميلة ويشتاق اليها كلما غاب عنها فأدرك أن لها مكاناً من قلبه علياً وخُيل له ان يتزوج بها ولكن كان يمنعهُ عن هذا التصور ما بين أبيه وأبيها من تفاوت الطبقة عالماً أن الناس لا يزالون مغرمين بالظواهر وأن الصفة المطلوبة بل الضالة المنشودة في الزوجية هي المال والجاه وندر من اهتم بمكارم الاخلاق والتربية الصحيحة ولذلك أيقن انه لا ينال ما تطمح اليه نفسهُ الا اذا نال جاهاً ومقاماً عظيماً وكان كلما اجتمع بها يرى منها

أمارات الحب والميل اليه ولم يجسر أحدهما ان يبوح لصاحبه بما تكنه الصدور

٣

ألا ان خير الودّ ودٌّ تطوعت به النفس لا ودّ أتى وهو متعب

حدث ذات يوم أن كانت دار الباشا خاليةً فعزم سعيد على اظهار ما في فؤاده من دواعي الهوى وراح يختلس الفرص ويحادث جميلة ويأخذ معها في اهداب الكلام حتى ساقها ذلك الى ذكر ايام صباهما ثم تحين للمناسبة وقال لها : أيخطر على بالك يا تُرى ما كان بيننا مستحكماً من علائق الحب والوداد أيام كنا احداثاً ؟ ألا تذكرين ذلك العهد الذي كان بهجة الايام والليالي ورياض الازمنة فكأن الشاعر نظر اليه حين قال :

شهور قد قُضين وما علمنا بأنصاف لهن ولا سِرار

— ألستِ تحبني الآن ؟

— كيف لا أحبكِ ! ولكني لا أعلم ان كنت باقيةً على العهد في الحب او زال أثره من نفسك ذهاب أمس الدابر فان الايام تقلب القلوب

— سلْ قلبك ينبئك عما في ضميري لك

— قلبي يحدثني بمحبتك ولكن لست ادري . . .

وعندها ساد السكوت وانقطعت سلسلة الحديث فلم يتجاسر احدهما على الاعتراف بأكثر مما اعترف والموقف حرج . فغير سعيد الموضوع خوفاً من لومها وعتابها وأخذا يبحثان عن المكتب فصار يمدح مستقبله ويشرح آماله ويتعلل بأنهُ سيكون منه رجل عظيم يحرز الرتب العالية والرواتب الوافرة اذا ساعده القدر ولم يخنهُ الحظ

وهنا تم الحديث وانقضت جلستهما التي يصح أن تسمى الاولى وهي الاولى

في شرح الغرام فودع سعيد حبيبتهُ وأليفة صباه وذهب الى مدرستهِ وآمالهُ تسبح به في سماء الخيال وقد أيقن انها شريكتهُ في الحب فارتسمت صورتها أمام عينيهِ في درسهِ وعند ما يخلو بنفسه وكان يذهب في تأويل كلماتها مذاهب شأن من رأى بصيص نور السعادة وكان منها محروماً او تجلت له أمارات الغنى وكان من قبل معدماً

« سل قلبك ينبئك عما في ضميري لك » جملة فاهت بها جميلة فأخذ أليف صباها يقيم العلالي والقصور من الاحلام ويتفنن في تفسير مضمونها على أوجه وبعد أن تل ما في كنانة عقلهِ من فهم المعاني الدقيقة قال يخاطب نفسه : أسألك يا قلب الا ما أطلعتني على ما خوتهُ ضلوعها ؟ فان كان وداً خالياً من الغرام فلست ارضاه اذ لا يجديني نفعاً . ثم راجع نفسهُ فقال ان قلبي يحدثني بأن عندها مني ماعندي منها وان سكوتها يدل على ذلك والسكوت في معرض الحاجة اقرار

ثم ما لبث أن سخر من نفسه وقال : واذ لم تعترف لي بما في فؤادها كيف يسوغ لي أن أحكم بحبها لي على الوجهِ الذي ترمي اليه آمالي ؟ . وأنشأ يفكر فيما يوصله الى معرفة كنهِ امرها من ناحيته فرأى أن يسطر لها كتاباً يستطلعها بهطلع افكارها فبعث اليها بالكتاب التالي :

« سيدتي — ساقني الجرأة ان أكتب اليك بهذا الكتاب وأنا اخشى ان لا ينال منك قبولاً ولا يكون سبيلاً الى غضبك الذي أعدّه من قواصم الظهور . واني لأود أن يقيم لي عذراً مقبولاً بما يمت به اليك من بيان ما تجنهُ اضالعي لك من الحب الطاهر . فان قولك يوم اجتمعنا « ان ما في قلبي لك ينبئني بما في فؤادك » قولٌ خليق بالنظر فقد فتشت في سويدائهِ وحناياه فلم أجد فيه لك غير الحب الاكيد مما يدعوني الى تعليق الآمال بما هو اقصى مناي من دنياي وأعني به ان تكوني شريكة حياتي تشاطريني فيها الافراح والاتراح . واني أتقدم اليك اذا رأيت

في رسالتي هذه لحة وجرأة أن تطويها عاذرةً والكريم عاذر واذا وقع كلامي منك موقعاً حسناً فلا تلومي مفاتحتي لك بما في قلبي واعف عني وقني سورة سخطك واكتمي الامر عن الشمس والقمر والسلام عليكِ . . »

ثم طوى الكتاب ووضعه في غلاف وذهب الى منزل الباشا وطلب ان يقابل الخانم الكبيرة ليقبل يديها ويقوم بما اعتاد من تقديم واجباته لها فدعتهُ اليها وسلمت عليه ودعت له بالتوفيق . فاختلس فرصةً في تلك الساعة وألقى الكتاب بيد جميلة فتناولته مرتعشةً وقد احمرّ وجهها ثم اقام هناك هنيهةً وانصرف الى مدرسته

ذهب سعيد فدخلت جميلة غرفتها وأغلقت الباب وأرخت ستور النوافذ وسدت المنافذ والشقوق بحيث لا يراها احد وجلست على كرسي ووجهت وجهها نحو الجدار وأخذت تقرأ الكتاب فاحمر وجهها خجلاً وعلمت انهُ وقع في شراك هواها فارادت ان تتماسك ولا تريه انحلالاً في الاخلاص لعلمها ان بعض الرجال يكرهون زوّاج من يبحن بسرائرهن في الهوى . فبعثت اليه كتاباً تعنيه به على جرأته وما وقع له من الالماع اليه على أسلة لسانه وبنانه . ولما تلا كتابها أخذ اليأس والخجل يقيمه ويقعده فهجر منزل الباشا زمناً حتى صار اهل بيته يسألون عنه ووقعت جميلة في شر اعمالها وندمت على ما فرط منها من عتابه المرّ الجافي على جرأته الغريبه وأيقنت ان الخوف اقصاه عن غشيان منزل أبيها فكتبت اليه بما يأتي :

« عزيزي : أراك هجرتنا هجراً طويلاً وما عودتنا من قبل ذلك فان كان هذا تناسياً فهو ينافي أملنا فيك وان كان خجلاً من عتابنا فعملك مردود عليك. فتعال اذاً يوم الثلثاء اذ يخلو لنا الدار بتغيب أمي وأبي لابوح لك بذات نفسي ولك مني الف سلام »

ثم طوت الكتاب وبعثت به مع خادمتها الامينة الى المكتب فلما تناوله سعيد كاد يطير فرحاً وأخذ يغوص في بحور الخيال ويسبح في فضاء الاماني الى ان اقبل اليوم المضروب للاجتماع فتحال على مدير المكتب ونال منه رخصة بالخروج ذلك

اليوم فخرج مهرولاً نحو منزل حبيبته . فلما دخل عليها سلم سلام المتلهف وهو لا يدري ما يقول فاحسنت استقباله بوجه يفتر سروراً ويطفح بشراً واخذت تلاطفه بالكلام وتقول كيف يخطر لك ان أسطر في الورق ما يخالج قلبي لك من الحب وليت شعري ماذا يكون حالنا لو وقع الكتاب في يد من يأتي به أبي ومن يشفع فينا عندئذ ؟ : فسكن روع سعيد وما جاش به من الجأش وعلم علم اليقين انها لم تجسر على مخالفته فقال لها :

الآن حصحص الحق وعلمت مكانتي منك فهل تتنازلين لقبولي رفيقاً لك في حياتك غير ناظرة الى فقري وقلة جاهي وتكتفين بمكارم أخلاقي وآدابي وتعتمدين صدقي وفرط ودي وتثقين بان حياتي ستكون وقفاً على ما فيه رضاك

فقالت انت تعلم ان امر زواجي ليس بيدي ولو خيرت لما اخترت سواك : على اني أستطيع رد كل من يطلبني غيرك وأنا عالمة بشدة بأس ابي فكن في أمان من اني سأبذل الوسع لاظل عانساً ريثما تنجز حتى دراستك ولعلك تنال مقاماً يلفك أمانيك فأعطيك هذا الوعد وسأثبت عليه مهما كلفني من العذاب والهوان

— أنا أعلم منزلتي وان لا سبيل الى طلبك ولكن ما يخالج قلبي من الاماني يدفعني الى القول باني بعد ما أتم دروسي التجهيزية سأذهب الى الاستانة وادخل في احدى المدارس الكبرى فانال عند خروجي منها بعد نيل الشهادة منصباً يهيئ لي مستقبلاً جميلاً اكون جديراً بك ويسوغ لي طلبك من أبيك

— نعم ما قلت وفكرت فليس لك عندي سوى النصيحة ان لا تتأخر عن الجد في التعليم لئلا تقعد ملوماً محروماً واسع جهدك ولا ريب عندي انك ستحرز مقاماً يليق بنفاذ بصرك وبصيرتك ومكارم أخلاقك وسمو آدابك واياك ان تقلبك الايام فتنسى ما قر عليه قرارنا الآن وأوصيك بالثبات على الوعد ولو بُليت بانواع العذاب

وهنا أقسم لها بكل مخرجة من الايمان وتحالفا على ان لا يخلا بالوعد وتفارقا على اللقاء ولو بعد حين

البقية تأتي